

عصمة النبي يوسف (ع)



▪ تشعّب خطوط المفسرين في العلوم، سبّب نوعاً من الإرباك في فهم القرآن، لدى الكثيرين من رواد القرآن. ذلك: إنّ كلاً منهم، انطلق إلى تفسير القرآن من منطلقه هو.. لا من منطلق القرآن هو.. فيبين: من اعتمد: (جمال التعبير) في القرآن، لأنّه كان متخصصاً في (علوم البلاغة). ومن تتبع دقايق: (علم النحو) في القرآن، لأنّه كان: (فقيهاً) لا يهمه شيء سوى الأحكام الشرعية. ومن اهتم بـ: (قصص القرآن)، لأنّه كان مغرياً بالتاريخ. ومن عنى بـ(العلوم الطبيعية) في القرآن، لأنّه تفرغ لها. وهكذا... بينما القرآن لم يكن، كتاب بلاغة، ولا كتاباً في العلوم العربية، ولا رسالة عملية، ولا مجموعة قصصية، ولا نشرة علمية... وإنّما القرآن كتاب دين، بالمفهوم الكامل للدين، الذي يربط الدنيا بالآخرة.. والمادة بالمعنى.. والطبيعة بما وراء الطبيعة.. وينظم الإنسان - كل الإنسان - بينها. فيأخذ من كل شيءٍ بمقدار ما يخدم هذا الهدف، فيستخدم من: جمال التعبير، ومن علوم العربية، ومن الأحكام، والقصص، والعلوم الطبيعية... ما يوجدّه ويربّي. فعندما يقول: (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهُنَّ تَمْرُّ مَرَّ السَّجَابِ) (النمل/ 88)، لا يعني ببيان الحركات المختلفة للأرض، بمقدار ما يعني بالتوجيه الذي ورد في بقية الآية: (صُدْعَ اللَّاهُ الَّذِي أَرْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) (النمل/ 88). وعندما يستعرض قصصاً أطلق عليها: (أحسن القصص)، لم يختارها لأنها أكثر القصص إثارة للفضول، وتمسكاً بالمستعين، وإنما اختارها لما فيها من رخص

توجيهي وتربوى. فلم يستعرض قصص الملوك، والفاتحين، والأبطال الأسطوريين... وإنما استعرض قصص الأنبياء، والصالحين. وذكر قصة: (ذى القرنين)، لأنّه كان - كما يقال - ملكاً رسولاً. وذكر قصصاً من: فرعون، وها مان، والشيطان، وبلعم... لاعتبارها قصصاً ناجحة من الناحية الفنية، وإنما لأنها تعكس سينات الموقف السلبي من: الإيمان، والمؤمنين. وقصة: (يوسف) (ع) استعرضت في القرآن، واستأثرت بأوسع ساحة استأثرت بها قصة أخرى في القرآن، لـ: 1- أب، منحه الله - تبارك وتعالى - اثنى عشر ولداً، كل منهم بطل عالمي في طاقة جسدية. ثم: يفضّل عليهم أصغرهم، ويعطيه - وحده - من قلبه ما لا يعطيهم جميّعاً، لأنّه - بالفعل - أفضّلهم مجتمعين، إنسانياً. وكيف انعكسـت - سلبياً - هذه المطاهرة العنيفة للمقاييس الفكرية على المقاييس الاجتماعية، على الأب والابن - معاً - بشكل، وعلى بقية الأخوة بشكل آخر! 2- أخ أصغر، حسده أخوه الكبار الأشداء، على مواهبه، فنكروا به. وكانت مواهبته من الجمال أكثر من أن يطاق. فعاكسته كل نظرات الإعجاب، فافهمته، وحاربته، حتى أصبح من كبار: (المعذّـ بين في الأرض)، وأحد (البكائين الخمسة) المعروفيـن، وـ: (المتنـقـ الـوحـيدـ منـ الرـجـالـ، عنـ جـمـيـعـ النـاسـ إـلاـ عـنـ زـوـجـهـ). 3- إخوة من ألمعـ الجـبارـ، حتـىـ أـصـبـحـ مـلـكاـ وـرـسـوـلاـ، وـسـعـىـ إـلـيـهـ وـالـدـاهـ وـإـخـوـتـهـ سـاجـدـيـنـ. 4- زـوـجـةـ مـضـيـفـةـ تـسـقـطـ فيـ أـسـرـ جـمـالـهـ، فـتـتـحـركـ نحوـ مـوـقـعـ القـوـةـ - إنـهاـ اـمـرـأـ العـزـيزـ - وـتـحـاـولـ فـرـضـ إـرـادـتـهاـ عـلـيـهـ، وـتـبـتـذـلـ، فـيـتـمـسـكـ - هوـ - بـمـيـادـيـهـ، وـبـرـفـضـ. وـعـنـدـمـاـ تـفـشـلـ هـيـ، تـنـقـمـ مـنـهـ، فـتـتـهـمـهـ، وـتـزـجـ بهـ فيـ السـجـنـ. 5- نـسـوـةـ فيـ المـدـيـنـةـ، تـنـشـرـ شـائـعـاتـ غـرـامـيـةـ، عـنـ اـمـرـأـ العـزـيزـ معـهـ. وـتـجـمـعـهـنـ اـمـرـأـةـ زـوـجـهـاـ. 6- نـسـوـةـ فيـ المـدـيـنـةـ، لـيـفـقـدـنـ أـعـصـاـبـهـنـ، وـيـقطـعـنـ أـيـدـيـهـنـ بـسـكـاكـيـنـ. فـيـظـهـرـ مـوـقـعـهـنـ فيـ العـزـيزـ، فـتـضـعـهـنـ أـمـاـمـهـ، لـيـفـقـدـنـ أـعـصـاـبـهـنـ، وـيـقطـعـنـ أـيـدـيـهـنـ بـسـكـاكـيـنـ. 7- تـدـورـ الأـيـامـ، وـيـخـرـجـ منـ السـجـنـ، مـنـقـذاـ لـلـبـلـادـ مـنـ كـارـثـةـ. وـلـكـنـهـ يـأـبـىـ أـنـ يـتـسـلـمـ مـصـيرـهـ - هوـ - بـمـيـادـيـهـ، وـبـرـفـضـ. وـعـنـدـمـاـ تـفـشـلـ هـيـ، تـنـقـمـ مـنـهـ، فـتـتـهـمـهـ، وـتـزـجـ بهـ فيـ السـجـنـ. 8- يـوـسـفـ عـلـىـ الـفـحـشـاءـ إـنـّـهـ مـنـ عـرـبـاـدـ زـانـ الـمـخـلـصـيـنـ) (يوسف/ 24). هذه الآية: تنـرـ يـوـسـفـ عـنـ الـخـطـيـئـةـ، وـعـنـ التـفـكـيرـ فيـ الـخـطـيـئـةـ، لـمـاـ يـلـيـ: 1- كـلـمـةـ: (همـ) لاـ تـسـتـعـملـ - فيـ الـعـرـبـيـةـ الفـصـحـىـ - لـلـرـغـبـةـ الـجـنـسـيـةـ، وـإـنـماـ تـسـتـعـمـلـ لـلـرـغـبـةـ فيـ الـاعـتـدـاءـ الـيـدـوـيـ - كـالـضـربـ -.

فعندما امتنع يوسف عن الاستجابة لزليخا، همّت بضربيه، تنفيساً لغضبها عليه.. . وهمٌ - يوسف - بضربيها، دفاعاً عن شرفه، الذي حاولت طعنـه.. ولكنـه تمالكـ عن ضربـها، لمعرفـته بأـنـه لو ضربـها، لفسـرـ بأنـ كانـ يحاـولـ الاعـتـداءـ علىـ شـرـفـهاـ. فـاكـتفـىـ بالـهـرـوبـ منـهاـ، وـتمـسـكـ بـهـ، فـشـقـتـ قـمـصـهاـ منـ دـبـرـ، فـكانـ دـلـيـلاـ علىـ مـحاـولـتهاـ الاعـتـداءـ علىـ شـرـفـهـ. 2- إنـ استـخدـمـ كلمـتـيـ: (لـولاـ) يـكونـ لـنـفـيـ ماـ قـبـلـهـماـ بـعـلـةـ ماـ بـعـدـهـماـ، فـلوـ قـلـنـاـ: (حضرـ زـيدـ لـوـلاـ أـنـ جاءـهـ ضـيـوفـ) معـناـهـ، إـنـهـ لمـ يـحـضـرـ بـعـلـةـ وـفـودـ ضـيـوفـهـ إـلـيـهـ. فيـوسـفـ لمـ يـهـمـ بـهـ، بـعـلـةـ رـؤـبـتـهـ بـرـهـانـ رـبـهـ. وـهـوـ نـورـ إـلـىـ، الـذـيـ أـشـرـقـ فـيـ عـقـلـهـ، فـأـرـشـدـهـ إـلـىـ عـدـمـ ضـرـبـهاـ.. أوـ هـوـ: مـعـرـفـتـهـ بـحـقـائـقـ الـأـشـيـاءـ الـتـيـ هـيـ عـلـةـ الـعـصـمـةـ - الـتـيـ سـبـبـتـ إـبـعادـهـ عـنـ جـمـيعـ الـمـنـكـراتـ. 3- لـوـ أـنـهـ جـلـسـ مـنـهاـ مجلسـ الـرـجـلـ مـنـ الـمـرـأـةـ، ثـمـ: ظـهـرـ - أـمـاـهـ - يـعـقـوبـ عـاصـاـ علىـ سـبـابـتـهـ، لـمـ تـكـنـ فـضـيـلـةـ لـهـ، حـتـىـ يـعـرـضـهاـ الـقـرـآنـ - فـأـيـ إـنـسانـ، لـوـ ظـهـرـ لـهـ أـبـوـهـ فـيـ مـثـلـ هـذـهـ الـحـالـةـ، يـتـرـاجـعـ عـنـ الـخـطـيـئـةـ -، وـلـكـانـ مـرـتـكـبـاـ السـوـءـ، لـأـنـ أـصـلـ جـلـوسـ رـجـلـ إـلـىـ اـمـرـأـةـ مـحـصـنـةـ - جـلـسـ الرـجـلـ مـنـ الـمـرـأـةـ - حـرـامـ، فـأـيـ صـرـفـ السـوـءـ وـالـفـحـشـاءـ عـنـهـ؟! وـكـيـفـ يـكـونـ مـنـ عـبـادـ إـلـىـ الـمـخـلـصـيـنـ؟! - الـبـاقـيـ والـفـانـيـ: (أـرـزـلـ مـنـ السـمـاءـ مـاءـ فـسـالـاتـ أـوـ دـيـةـ بـقـدـرـهـاـ فـاـحـدـمـلـ السـيـلـ زـبـدـاـ رـأـبـيـاـ وـمـمـاـ يـوـقـدـونـ عـلـيـهـ فـيـ الـذـارـ اـبـتـغـاءـ حـلـيـةـ أـوـ مـتـاعـ زـبـدـ مـثـلـهـ كـذـلـكـ يـهـرـبـ الـلـاهـ الـحـقـ وـالـدـبـاطـلـ فـأـمـاـ الزـبـدـ فـيـذـهـبـ جـفـاءـ وـأـمـاـ مـاـ يـنـفـعـ الـذـاسـ فـيـمـكـثـ فـيـ الـأـرـضـ كـذـلـكـ يـهـرـبـ الـلـاهـ الـأـمـثـالـ) (الـرـعـدـ/17). فـإـنـ - تـعـالـىـ هوـ الـبـاقـيـ، وـأـمـاـ إـلـيـانـ: فـتـهـدـ الـحـيـاةـ ذـكـرـاهـ. كـمـاـ تـهـدـ جـسـمـهـ. وـمـنـ بـقـيـ مـنـ الـبـشـرـ، فـبـمـقـدـارـ تـمـسـكـهـ بـإـنـ. وـالـعـظـمـاءـ الـحـقـ، الـذـيـنـ كـرـسـواـ حـيـاتـهـمـ لـلـحـقـ الـمـطـلـقـ - وـهـوـ إـنـ - باـقـونـ بـالـأـمـوـاجـ الـتـيـ أـطـلـقـوـهـاـ فـيـ الـحـيـاةـ. وـمـنـ بـقـيـ مـنـ غـيـرـهـمـ، فـقـدـ تـمـسـكـ بـطـرـفـ مـنـ الـحـقـ: كـذـيـ الـقـرـنـيـنـ، وـلـقـمـانـ، وـسـقـراـطـ، وـأـرـسـطـوـ، وـحـاتـمـ... وـحـتـىـ أـعـدـاءـ الـعـظـمـاءـ، ظـلـلـوـ بـاـقـينـ، لـتـمـسـكـهـمـ بـالـعـظـمـاءـ، وـإـنـ كـانـ تـمـسـكـهـمـ بـأـسـلـوبـهـمـ، وـهـوـ الـأـسـلـوبـ الـلـئـيمـ، فـخـلـدـوـاـ فـيـ إـطـارـ لـئـيمـ. فـمـنـ كـانـ يـعـرـفـ: أـبـاـ جـهـلـ، وـعـمـروـ، وـمـرـحـبـ، وـالـوـلـيدـ، وـابـنـ الـزـبـعـرـ، وـأـمـثالـهـ... لـوـلـ الرـسـولـ الـأـكـرمـ (صـ)؟! وـمـنـ كـانـ يـعـرـفـ: اـبـنـ مـلـجمـ، وـالـشـمـرـ، وـيـزـيدـ، وـنـظـرـاـئـهـ... لـوـلـ أـهـلـ الـبـيـتـ (عـ)؟! - الـمـسـتـرـسـلـ مـعـ الـهـوـيـ: (وـلـأـوـ أـنـ قـرـآـنـ سـيـرـتـ بـهـ الـجـبـالـ أـوـ قـطـعـتـ بـهـ الـأـرـضـ أـوـ كـلـمـ بـهـ الـمـوـتـ...) (الـرـعـدـ/31). (ولـوـ أـنـ) شـحـنةـ منـ الطـاقـاتـ الـقـاهـرـةـ، الـتـيـ تـحـرـكـ الجـبـالـ مـنـ مـرـاسـيـهـاـ، وـتـشـقـقـ كـرـةـ الـأـرـضـ الـضـخـمـةـ الـمـتـمـاسـكـةـ، وـتـحـيـيـ الـأـمـوـاتـ فـيـ الـأـجـدـاثـ حـتـىـ تـتـكـلـمـ فـيـ الـأـحـيـاءـ... لـوـ أـنـاـ أـتـخـذـنـاـ شـحـنةـ مـنـ هـذـاـ النـوـعـ مـنـ الطـاقـاتـ، الـتـيـ لـاـ عـهـدـ وـلـاـ قـبـلـ لـلـبـشـرـ بـهـ، فـنـظـمـنـاـهـ كـلـمـاتـ وـسـوـرـاـ، وـجـعـلـنـاـهـ (قـرـآنـ)، حـتـىـ لـوـ قـرـرـ بـعـضـهـ بـشـكـلـ مـعـيـنـ، (سـيـرـتـ بـهـ الـجـبـالـ) تـمـخـرـ فـيـ الـأـرـضـ، كـمـاـ تـمـخـرـ السـفـنـ فـيـ الـبـحـرـ،

(أو) قرئ بعض آخر منه بشكل آخر، (قطعت به الأرض)، وتزلزلت، فغاصت الجبال وتساقطت الوهاد، وصارت الصحاري بحارةً والبحار صحاري، (أو) قرئ بعض ثالث منه بشكل ثالث، على المقابر، لانتفاضت الرمام بشراً كاملاً فـ(كلّم به الموتى). ولو قرء أي قسم منه بالشكل المناسب، لكان له أثر كوني عظيم في شيءٍ. فلو أننا نظمنا القوى القاهرة في الكون، إلى كلمات وسور، فقرأوها قرآنًا، وجربوا تفاعلاتها العظيمة، لما آمنوا به. لأنهم استرسلوا مع الهوى حتى طبعهم، فلا يريدون العدول عنه إلى الحق. والإشكال ليس في أنهم لم يعرفوا الحق، أو أنَّ الحق ليس لديهم بتلك الدرجة الكافية من الوضوح، وإنما الإشكال في أنهم ليسوا على استعداد للإعتراف بالحق مهما كان واضحًا. المصدر: مجلة الإيمان/ العدد 37 لسنة 1415هـ